

دراسة

الهجرة النبوية: في شرطها ولشرطنا

إحياء
Ihyaee



محمد زاوي



02 نونبر 2020

جميع الحقوق محفوظة © 2020

محاور الدراسة:

1-مقدمات الهجرة النبوية

خلفيات الشرط التاريخي للنبوة
ظروف التكوين والنشأة
مرحلتا ما قبل الهجرة

2-فتوح الهجرة النبوية

التحكيم
المؤاخاة
التشريع
بناء مؤسسات الدولة
الغزو
الفتح

3-المستفاد من الهجرة النبوية في شرطنا التاريخي

الهجرة من تعدد آلهة الرأسمالية إلى عقيدة التوحيد
الهجرة من العولمية إلى الوطنية
الهجرة من زمن الخونة والعملاء المأجورين إلى زمن الزعماء
الوطنيين الواعين بقضايا الوطن
الهجرة من واقع تجزئة الدولة واستعمارها إلى واقع توحيدها
واستقلالها
الهجرة من واقع التسرع والارتجال وحمل التاريخ على الأعمار إلى
واقع التدرج والتخطيط الاستراتيجي واعتبار منطق التاريخ

1-مقدمات الهجرة النبوية

لم تكن الهجرة النبوية اختيارا سابقا على استجابة النبي لتحديات التاريخ، بل كانت -على العكس من ذلك-فعلا نبويا في الزمن والمكان، لم يكن ليجد طريقه للانعتاق إلا وفق "قوانين" الواقع الموضوعي للفترة النبوية. الشرط العربي للنبوّة، تكوين النبي (ص)، البعثة النبوية، الدعوة السرية، الجهر بالدعوة وتحمل الأذى فيها، البحث عن أفق جديد للدعوة الجديدة... إلخ. هذه هي "مقدمات الهجرة النبوية"، فلا تُفهم الهجرة بدونها، ولا تكتمل صورتها (الهجرة) إلا باستحضارها.

يتجلى "الشرط العربي للنبوّة" في عدة "خلفيات" - كما يسميها مونتغمري واط:-

- الخلفية الاقتصادية: الرعي بالتناوب على نوعين من الأراضي (أرض تكون متاحة للرعي في الشتاء، وأخرى في الصيف)، زراعة الحبوب في الجبال، زراعة النخيل في الواحات، التجارة في مكة والطائف (تجارة مكة كانت الأقوى، بدأت بالوساطة بين الشام واليمن وغيرها من البلدان، وانتهت بالتجارة الفعلية وخاصة ما عرفته مكة من تجارة موسم الحج)، عيش القبائل المجاورة على اعتراض سبيل القوافل التجارية وحمايتها، الاهتمام بالمعاملات المالية والعمل على تحصيل الأرباح وادخار الأموال، الغذاء كان تمرا ولبنا ولحما وكانت الحبوب متاحة للمترفين فقط، اليمن كانت معروفة بخصوبة أراضيها وازدهار زراعتها، المدينة كانت مزدهرة وكان اليهود يستعمرون منها عدة أراضٍ كخيبر، ظهور

بعض الصناعات المحلية كتصنيع المنتجات الجلدية في الطائف (وكانت هذه الصناعات متبادلة ومتداولة بين القبائل والمدن)... إلخ.

- الخلفية السياسية: تكوّن "المجموعات السياسية" من أسر وتحالفات قبلية أثرت في بعض أحداث "السيرة النبوية" (إنهاء مقاطعة بني هاشم، الأسر المشاركة في غزوة بدر مع طرف المشركين، طلب الجوار بعد عودة النبي من الطائف... إلخ)، إدارة الخلاف السياسي بالاجتماع في تنظيم "الملأ" وباستثمار رمزية شيوخ مكة، تخصيص بعض الشيوخ أو بعض الأشخاص ببعض المهام والوظائف (النسيء، السقاية، الرفاة، اللواء... إلخ)، تعلق الهبة في صحراء شبه الجزيرة العربية بالقوة العسكرية (القدرة على حماية الأتباع، الثأر... إلخ) ومنه كان الاعتراف بقريش كأقوى قبيلة عربية، الاهتمام بمكة من قبل ثلاث قوى هي "الإمبراطورية البيزنطية" و"الإمبراطورية الفارسية" و"مملكة الحبشة" (وعلى ضوء هذا الاتمام والتناقضات بين الأطراف الثلاثة المهتمة كان يتصرف المكيون)... إلخ.

- الخلفية الاجتماعية والأخلاقية: التكافل القبلي الذي كانت تفرضه ظروف المعيشة الصحراوية (تلافي الجريمة، حماية المصالح...)، ظهور "خلعاء" متمردين على قبائلهم بين الفينة والأخرى (وتلك هي "الفردية" التي يُنبذ أصحابها في قبائلهم، بتعبير مونتغمري واط)، "ظهور الإحساس بالوحدة على أساس المصالح المادية المشتركة"، رسوخ قاعدة من "المثل العليا الأخلاقية" (الشجاعة في القتال، الصبر عند المصيبة، الإصرار عند الانتقام، حماية الضعيف، تحدي القوي، الكرم وحسن الضيافة، الوفاء والإخلاص... إلخ)... إلخ.

- الخلفية الدينية والفكرية: عبادة الأوثان والأصنام وبداية تدهور هذه الديانة عند الكثير من العرب (والمكيين منهم خصوصا)، تفوق الإنسان للقبيلة

والانتماء لهذه بهدف التفوق (يسمىها مونتغمري واط "الإنسانية القبلية")،
نسبة الأحداث والطوارئ للدهر والقدر، "ظهور الاتجاه نحو التوحيد" (حركة
"الحنفاء")... إلخ.¹

يتحدث كثير من المتقدمين، ومن سار على نهجهم من المعاصرين، عن
"مقدمات النبوة". ولكنهم لا يتجاوزن بذلك ما تضمنته الرواية "المتقدمة"
(محمد بن إسحاق، عبد الملك بن هشام، أبو القاسم السهيلي)، وذلك من
زهدهم فيما قد يتوصل إليه البحث التاريخي المعاصر. إننا لا ننكر -مع عبد الله
العروي- ما اعترض سبيل الأبحاث التاريخية المعاصرة (الاستشراقية) من عقبات
جعلتها تسقط في أحد خطأين: استسلام لندرة الوثائق التاريخية، أو تعسف
في ملء الفراغات التي تخلفها تلك الندرة (هذا هو منهج مونتغمري واط،
وفق ما صرح به عبد الله العروي)²؛ إننا لا ننكر ذلك، ولكننا قد نستفيد من
بعض ما يكتشفه المتعسفون في غير ما تعسفوا فيه، فنعثر على معطيات
غاية في الأهمية لا نكاد نجد لها أثراً في كتب "المتقدمين" من كتاب السيرة
ومن سار على نهجهم.

"تكوين النبي (ص) وتنشئته" هو ما لا يسعنا إهماله ونحن نحاول الكشف عن
مقدمات "الهجرة النبوية"، فالهجرة نتاج: عبقرية في ذات النبي، ووحى تلقاه

1- راجع تفصيل ما تم تلخيصه هنا في: مونتغمري واط، محمد (ص) في مكة، ترجمة: عبد
الرحمان الشيخ وحسين عيسى، مراجعة أحمد شلبي، اتصالات سبو، الطبعة الثانية، 2014،
من ص 15 إلى ص 47.

2- راجع: "الإيديولوجيا العربية المعاصرة"، عبد الله العروي.

النبي. فكان لزاما علينا تتبع مراحل تكوين هذا النبي، حتى تظهر لنا في حقيقتها، لا كما حاول بعضهم إضفاء طابع من "السحر" عليها. إن ما أطلقنا عليه هنا "التكوين"، هو ما أسماه أبو زيد المقرئ الإدريسي "إعدادا" تمّ كآلاتي:

"-استكمال أربعين يوما حتى لا يقال عنه غلام.

- اختياره جميلا حتى لا يُنتقص منه.

- اختياره أميا لا يعرف القراءة والكتابة حتى لا يُتهم بالنقل عن الكتب السابقة (وفي هذا الصدد وجدنا خلاف بين علماء اللغة في تحديد معنى "الأمي" كما وردت في القرآن، وكذلك في تحديد معنى "اقرأ"، وقد جاؤوا بعكس ما تفضل به "المقرئ" هنا).

- اختياره من قريش: حتى لا يُنتقص منه بسبب تواضع أصله الاجتماعي.

- الإعداد التربوي الخلقى: حتى يطابق قوله فعله، وإلا وجد المغرضون منفذا للطنن في دعوته.

- الإعداد النفسي: حتى يكون قادرا على الصبر والتحمل وسعة الصدر وضبط النفس... إلخ.

- الإعداد الفكري: حيث التحنث في غار حراء، طيلة خمس سنوات.

- اختيار غار حراء مكانا لنزول الوحي لتوفير ظروف التأمل والتفكير³.

السن والخلقة والمستوى العلمي والقبيلة... كلها صفات لا يُعتدّ بها في ميزان "حقيقة الشريعة" خارج الأرض، ولكنها في الأرض لا يتمّ الإخبار بالوحي

3-أبو زيد المقرئ الإدريسي، القرآن والعقل: مدخل معرفي، الجزء الأول، مؤسسة الإدريسي الفكرية للأبحاث والدراسات، الطبعة الأولى، 2015، من ص 164 إلى ص 175.

والدعوة إليه إلا بأخذها بعين الاعتبار. ويعلم الجميع أن الله قادر على إلقاء الوحي في الروح من غير إعداد، إلا أن في الإعداد درسا مفاده "لكل نتيجة سبب، ولكل مجتهد نصيب يكافئ اجتهاده وتفانيه".

يقول المقرئ: "إن الإسلام لا يعول كثيرا على الهيئة أو السن أو الأصل الاجتماعي، ولكنه راعى العقلية السائدة تكميما لأفواه المشككين".

ويقول: "وقد تم الحرص على اختيار لحظة من لحظات هذا الإعداد التي وصل فيها الرسول (ص) إلى قمة اكتمال تفتح العقل وتهيئه الفكري بالاستغراق العميق في التأمل الجواني المفصول عن الواقع بالظلمة المطبقة والصمت الأشد إطباقا، لتكون هي اللحظة التي اختيرت لنزول الوحي"⁴.

لقد أضاف عبد الصمد بل كبير لظروف التكوين أعلاه ظروفًا أخرى، تتجلى في:

- أن الرسول (ص) كان نتيجة علاقة حب بين أمه وأبيه، فسلامة نفسية الطفل من سلامة العلاقة بين والديه.

- أنه رُبي في بني سعد حيث تعرف (بعقل الطفولة) على يهودية بني سعد (يهودية أقرب إلى النصرانية، غير محرقة، وغير يهودية يهود المدنية الفاسدين).

- أنه عاش اليتيم وتكبد كل أنواع الحرمان، حيث حُرِم من أبيه وأمه وجدته وعمه والإخوة، كمت أنه اشتغل على صغر في الرعي ثم التجارة.

- أنه كان سليما جسديا، والقرائن على ذلك عديدة (منها سباقه عائشة (ض) على كبر سنه، فما بالك عن سباقه وهو في عنفوان شبابه).

- أنه التقى خديجة (ض)، حيث اختبر أخلاقه في الإشراف على تجارتها... إلخ.⁵
إن النبي (ص) الذي "هاجر" لم يكن رجلاً من عامة الناس، بل كان من خاصتهم.
لقد كان أكثرهم قدرة على الاستجابة بتقدمية للتحديات التي كانت تعيشها
شبه الجزيرة العربية، وما ظروف التكوين أعلاه إلا قرائن على عبقريته
واستعداده لتلقي الوحي، وعلى استثمار تلك العبقرية في حماية الدعوة
الجديدة وتوسيع دائرة نفوذها وانتشارها.

وبعد أن تهيأ الرسول العظيم للنبوّة، أوحى إليه. وكما لم تكن صفاته وملكاته
خارج: ما تقدّره قريش (العرب)، وما تعلّي من شأن صاحبه، وما تعجز عن اتخاذه
منفذا للطعن في صاحب الدعوة الجديدة؛ كما لم تكن صفاته وملكاته كذلك،
فإن "الوحي إليه" لم يكن بعيداً عمّا يؤثر في العرب ويشكل جزءاً من تفكيرها
وموقفها من الإنسان والكون. ولسنا هنا في حاجة لخوض غمار الحديث عن
"التصورات المختلفة لظاهرة الوحي" (تلقي رسالات الله لفظاً ومعنى أو معنى
فحسب، الإلهام الرباني في ثقافة ولغة القوم، التخيل، الهذيان، صناعة بشرية
أنتجها عقل النبي (ص) في شرط تاريخي) والتعقيب عليها، فحسب "الوحي"
أن كان ثورة عقديّة وسياسية لا ينكرها ذو عقل سديد، وحسبه أن التاريخ
بعده كان غير الذي قبله.

أمر الرسول العظيم بالبلاغ، فكانت دعوته في البدء سرّاً، ثم نقلها إلى العلن
والجهر بها فيما بعد. لقد استمرت الدعوة الأولى ثلاث سنوات، من بعثته إلى
أن جهر بدعوته. أما الثانية فقد استمرت قرابة عشرين سنة، من جهره

5- عبد الصمد بلكبيري، من محاضرة بعنوان: "نظرات في السيرة النبوية".

بدعوته في مكة إلى أن توفاه الله. ما يهمنا من هذه المراحل، ما دمنا نتكلم عن "مقدمات الهجرة النبوية"، هو مرحلتي ما قبل الهجرة:

- مرحلة الدعوة السرية: وهنا ركز النبي اهتمامه على دعوة المقربين إليه من أهل بيته (خديجة بنت خويلد (ض)، علي بن أبي طالب (ض)، زيد بن حارثة (ض)... إلخ) أو من أصدقائه ومعارفه (أبو بكر بن أبي قحافة، عثمان بن عفان، الزبير بن العوام، عبد الرحمان بن عوف... إلخ)، كما أنه جعل لكل هؤلاء بيتا (دار الأرقم بن أبي الأرقم) يلتقون فيه لتلقي معالم الدين الجديد، وكان كل ذلك يتم سرا دون أن يعلم به أحد من كبراء مكة.

- مرحلة الدعوة الجهرية اللسانية: وبعد أن أمر الله رسوله بالجهر بالدعوة، خرج بدعوته للعلن داعيا بني مرة وبني لؤي وبني عبد شمس وبني عبد مناف وبني عبد المطلب؛ خرج إلى كل هؤلاء يدعوهم لعقيدة التحرير والخروج من "الدائرة المفرغة" التي كانت تتخبط فيها شبه الجزيرة العربية، دون أن يعتبر في الله لومة لائم أو تهديد جاحد مستكبر. فكان التعذيب، وكانت الهجرة إلى الحبشة، وكانت المحاصرة في الشعاب، وكان الإغراء، وكان التآمر، وكان الإيذاء في الطائف... إلخ. وكل ذلك لم ينل من النبي (ص) وصحابته شيئا، بل قواهم ووضعهم على محك الاختبار وأوصل أصداء دعوتهم إلى باقي القبائل العربية⁶.

6-محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، دار الفكر، 1993، من ص 67 إلى ص 118. ستجد، في هذه الصفحات، ما ذكرناه هنا بإيجاز، مع بعض التأملات والدروس والعبر التي جاد بها تفكير محمد سعيد رمضان البوطي.

إن ما يلفت الانتباه في مرحلة الدعوة المكية هو عدم لجوء النبي (ص) إلى العنف طيلة هذه المرحلة، بالرغم من الأذى الذي ألحق به والمعاناة التي لقيها جراء الجهر بدعوته. وفي ذلك درسان على الأقل:

- الأخذ بالسنن المادية، إذ لا يمكن للقلة أن تنتصر على الكثرة إلا بمعجزة، ولم يكن بودّ للنبي (ص) أن يغامر بالدعوة الجديدة وهي في مهدها لم تترسخ بعد في نفوس حامليها أنفسهم.

- الامتناع عن إثارة الفتنة وممارسة العنف المادي في كيان ليس للمسلمين، وهذا هو الواقع الذي نسخته الهجرة النبوية بعدما أصبح للمسلمين كيان سياسي يشكلون أغليبيته في المدينة.

وبعد أن اشتدّ الخناق على النبي (ص) وصحبه في مكة، كان لزاما عليه أن يبحث عن أفق جديد لدعوته الجديدة. فبدأ يبحث عن سبل الانعتاق داخل شرط الخناق والحصار لا خارجه، وفي موسم الحج، أخذ يبحث عن قبيلة أو قبائل تأويه وتحميه ودعوته. إن "الهجرة النبوية" التي يصوّرها بعضهم حدثا طارئاً لم يكن ليطلب تخطيط أحد، هي عكس ذلك تماما. لقد كانت خطوة "استراتيجية" في وعي النبي (ص)، خطوة عمل على إنجازها النبي كما يريد لا كما يريد غيره. ولذلك، فإنه تمسك بخطته بالرغم من تجاهله من قبل أغلب الحجيج وبالرغم من تحريض القرشيين عليه، كما أنه رفض أن يخضع لشروط القبائل المستضيفة (ما وقع له مع بني عامر بن صعصعة).

وبعد أن جعل يهود المدينة من خبر النبوة ورقة ضغط يضغطون بها على أوس وخزرج المدينة (لكونهم أصحاب رسالة)، سيجدون أنفسهم في مواجهة دعوة محمد (ص) هم أنفسهم. وهذا دافع من الدوافع التي جعلت الأوس

والخزرج يقبلون دعوة النبي (ص)، فكانت "بيعة العقبة الأولى"، ثم "بيعة العقبة الثانية". في الأولى، بايع الرسول من أهل يثرب اثنا عشر رجلا على التوحيد والطاعة واجتناب بعض الموبقات والكبائر (الشرك، السرقة، الزنا، القتل بغير حق... إلخ)، وأرسل معهم مصعب بن عمير (ض) سفيرا منه إليهم وداعيا لمن بقي منهم ومعلما لمن أسلم فيهم. وفي الثانية، عاد مصعب (ض) ومعه خمسة وسبعون نفرا من أهل يثرب، فبايعوا النبي (ص) على أن "يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم"، ثم عيّن منهم (بعد اقتراح منهم) اثني عشر نقيبا يتحملون مسؤولية قومهم ويهيؤون للرسول العظيم ظروف نزوله بيثرب بعد الهجرة.⁷

وبالبيعتين يستمر حرص الرسول على إيجاد منفذ جديد لدعوته. فمن حرصه أن يعرفّ نفر الأول (البيعة الأولى) بأساسيات الإسلام، ويكتفي ببيعتهم عليها بداية. ومنه أن يرسل معهم مصعب بن عمير (ض) للدعوة إلى الدين الجديد في يثرب، فيكون ذلك أول حلول بتلك الدعوة في دار الأنصار. ومنه أن يبايعه نفر الثاني (البيعة الثانية) على حمايته وطاعته ونصرته، وأن يعين منهم نقباء يمثلونه في يثرب ويتحملون مسؤولية الدعوة والتمهيد للهجرة واستقبال النبي (ص) وتأسيس الدولة.

7- نفسه، من ص 119 إلى ص 134، (وفي المرجع تفاصيل وعظات). صفى الرحمان المباركفوري، روضة الأنوار في سيرة النبي المختار، منشورات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد/ السعودية، الطبعة الأولى، 2003، من ص 131 إلى ص 139. وهذا هو نفس ما أورده المباركفوري في كتابه "الرحيق المختوم" بشيء من التفصيل، منشورات رابطة العالم الإسلامي/ مكة، الطبعة الأولى، 2006، من ص 107 إلى ص 115. وراجع إن شئت أيضا: أبو بكر الجزائري، هذا الحبيب محمد (ص) يا محب، الطبعة الأولى، 1995، من ص 99 إلى ص 102.

2-فتوح الهجرة النبوية

لقد شرع الرسول العظيم في الاشتغال على تأسيس "دولة المدينة" منذ أن "تصرف بالبلاغ" لأول مرة، ولكن لم يعمل لذلك عن وعي إلا بعد أن فشلت كل محاولاته المكية، وبعد أن وجد أغلبية تستقبله وتحمي دعوته في يثرب. وقد كانت "الهجرة النبوية" نسخاً لواقع مكة وبداية لتأسيس "دولة المدينة"، وذلك هو الدور التاريخي للهجرة. أما "فتح مكة"، فقد كان نسخاً للانحسار في المدينة وبداية للتوسع في شبه الجزيرة العربية وما يحيط بها. لقد اقتنع الأنصار بدعوة الإسلام، ولكنهم -على كل حال- لم يكونوا ليترفعوا بذلك عن ظروفهم السياسية والاجتماعية. وعلى ذلك الأساس تم الاتفاق بين النبي (ص) وأهل يثرب، هو يحكم بينهم (عبد الصمد بلكبير)، وهم ينصرونه ويحمونه ودعوته ويطيعونه على المنشط والمكره. هو يوحدهم وينصرهم على يهود يثرب، وهم يهتدون بهديه ويحمونه من بطش مشركي قريش. وعموماً، يمكننا تلخيص "فتوح الهجرة النبوية" في الآتي:

- التحكيم (تأسيس الدولة):

الإقليم والشعب والسلطة والدستور... إلخ. هذه هي أهم العناصر الضرورية لتأسيس دولة، وهي مترابطة فيما بينها، حيث لا يخل أحدّها إلا وتختل باقي العناصر. إن العنصر الوحيد الذي كان يعوز اليثريين ويحول بينهم وبين تأسيس دولة هو "وحدة الشعب"، وذلك هو العنصر الذي سيعمل النبي (ص) على تحقيقه بقدمه إلى المدينة ب: التحكيم بين الأوس والخزرج⁸، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وضبط سلوك يهود المدينة بقواعد "الصحيفة"

8-عبد الصمد بلكبير، نفس المحاضرة أعلاه.

(الدستور). وهو ما كان مفقودا وغير متاح قبل مجيء "المُحكِّم"، حيث كان لا يفضي توازن الرعب بين الأوس والخزرج إلى تأسيس دولة، وحيث كان يهود المدينة يعملون على استمرار هذا التوازن دون أن تسيطر فئة على أخرى. فتلك السيطرة كانت تعني تأسيس الدولة، وهو ما كان لا يصبّ في مصالح اليهود. وعوض أن تتأسس الدولة على أساس من سيطرة الأوس على خزرج أو العكس، فقد أسسها الرسول على أسس: التحكيم بين الأوس والخزرج، المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ضبط سلوك اليهود بقواعد "الصحيفة"، وهو ما كان يعني سيطرة فئة المسلمين على فئة مشركي المدينة ويهودها.

- المؤاخاة:

يقول محمد سعيد رمضان البوطي: "فجعل جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل أخوين، وجعل حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة أخوين، وجعل أبا بكر الصديق (ض) وخارجة بن زهير أخوين، وعمر بن الخطاب وعتبان بن مالك أخوين، وعبد الرحمان بن عوف وسعد بن الربيع أخوين... وهكذا"⁹ لقد كانت هذه المؤاخاة أشبه بالمعجزة، الأمر الذي يجعل الباحث يتساءل: أي دافع هذا جعل الأنصار يتخلون عن مصالحهم العينية لصالح تأسيس الدولة؟ أليس هذا دليلا على شدة تعلقهم بالنبي (ص) وبدوره في تأسيس "دولة المدينة" ومواجهة يهودها التحريفيين؟!

لم تكن المؤاخاة معنوية فحسب، بل إنها كانت مادية، حتى أنها منحت الأخ من المهاجرين الحق في تركة أخيه من الأنصار، إلى غير ذلك من قسمة المسكن والمطعم والملبس... إلخ. وفي هذا الصدد، وجدنا المباركفوري يقول:

9- محمد سعيد رمضان البوطي، نفس المرجع السابق، ص 156.

"ثم زاد النبي (ص) هذا الحب والإيثار قوة بعقد المؤاخاة بينهم وبين المهاجرين، فجعل كل أنصاري ونزيله أخوين، وكانوا تسعين رجلا، نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار، فأخى بينهم على المؤاساة، وأنهم يتوارثون فيما بينهم بعد الموت، دون ذوي الأرحام، ثم نُسخ التوارث وبقيت المؤاخاة".¹⁰

- التشريع:

وهو ثلاثة أقسام: تشريع القرآن، تشريع القول النبوي، تشريع "الصحيفة". فقد جاء كل من تشريع القرآن وتشريع القول النبوي بعدة قواعد تنظم العبادات والمعاملات والنكاح والجنائيات، منها ما كان ينظم الأموال، والذي على أساسه عُرِف المؤمن من عدمه (تشريع وجوب الزكاة)، كما أغلقت على أساسه منافذ اليهود إلى الأرباح المحرمة (تشريع تحريم الربا)¹¹. أما تشريع "الصحيفة"، فقد كان بغرض تنظيم العلاقة بين مكونات مجتمع المدينة الثلاثة: المسلمون (مهاجرين وأنصارا)، المشركون (أهل الذمة)، اليهود (وهم من أهل الكتاب). وقد كانت هذه "الصحيفة" بمثابة "دستور في مرحلته الجنينية"، دستور يستمد فلسفته من "روح الشريعة وأحكامها"، كما يستمد صياغته التفصيلية من التفاصيل الدقيقة لواقع المدينة الجديد (بعد الهجرة).

- بناء مؤسسات الدولة (بناء المسجد):

لا بد أن تكون لـ"دولة المدينة" مؤسسات، فكانت أولها: مسجد المسلمين وبيت نبيهم وزعيمهم السياسي. فلا بد أن يُعَرَف محلّ سكنى القيادة، حتى

10- صفى الرحمان المباركفوري، روضة الأنوار في سيرة النبي المختار، نفس المرجع السابق، ص 158:

11- عبد الصمد بلكبير، نفس المحاضرة أعلاه.

تُحَفَظُ له حرمة ("إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون"). ولا بدّ أن يُعرَفَ مكان الاجتماع والقرار، حتى يُلجأ إليه عند كل طارئ يطرأ على الدولة، أو على فرد أو جماعة من المجتمع. وعموما، فقد كانت الأدوار التاريخية للمسجد النبوي متمثلة فيما يلي:

أولاً؛ التداول في شؤون المجتمع والدولة.

ثانياً؛ الإخبار بالتهديدات العسكرية الخارجية.

ثالثاً؛ التحريض على الغزو.

رابعاً؛ التعليم والتربية على الدعوة الجديدة (دعوة الإسلام).

خامساً؛ الفصل في المنازعات بين أفراد مجتمع المدينة.

... إلخ.

- الغزو:

لم يكن الغزو اختياراً نبوياً، بل إنه كان فرضاً إلهياً على "نبيه ومن معه"، وكان قبل ذلك مما تفرضه مجريات التناقض الداخلي لشبه الجزيرة العربية آنذاك. فإمّا أن تتأسس الدولة وتتوسع، وإمّا أن يبقى العرب كما كانوا من ذي قبل: قبائلٍ شتى معرضين للتهديد الأجنبي. وكعادتها هي الدعوات الجديدة، دائماً ما تواجهها الدعوات القديمة. وهو الصراع الذي يأخذ أشكالاً عنيفة في أغلب التجارب التاريخية، بسبب تمسك الفئات السائدة بمصالحها (بعقائدها). كذلك كان في تجربة الرسول العظيم (ص)، فكانت الغزوات وأخذ الصراع بين الدعوتين، القديمة والجديدة، منحى آخر. فبعدما كان المسلمون مستضعفين بين مشركي قريش، أصبحوا "دولة" (دولة المدينة) مستقلة قادرة على خوض الحروب العسكرية. وقد تعددت الغزوات حتى بلغت 26 غزوة، منها:

أولاً؛ التي كانت بهدف الردع واسترجاع الحق والتأثير الإيجابي في موقف القبائل العربية من الدعوة الجديدة (غزوة بدر، غزوة بدر).

ثانياً؛ والتي كانت بهدف مواجهة التحديات الداخلية لـ"دولة المدينة"، وهي التي كانت ضد "يهود المدينة وجوارها التحريفيين" (غزوة بني النضير، غزوة بني قريظة، غزوة خيبر).

ثالثاً؛ والتي كانت بهدف الدفاع عن حمى "دولة المدينة" من كل تهديد عسكري خارجي (غزوة الخندق).

رابعاً؛ والتي كانت بهدف إرجاع الاعتبار للمسلمين وحماية الدعوة ووسائلها (غزوة مؤتة).

خامساً؛ والتي كانت بغرض إجراج مشركي قريش في مكة، وفرض حق المسلمين عليهم في دخولها (غزوة الحديبية، غزوة الفتح).

سادساً؛ والتي كانت بهدف التوسع في شبه الجزيرة العربية بعد الفتح (غزوة حنين).

سابعاً؛ والتي كانت معلنة عن بداية الفتوحات الإسلامية، توسيعاً لمجال الدولة الصاعدة، ودفعاً لخطر الإمبراطوريتين المجاورتين (الفرس والروم).

... إلخ.¹²

- الفتح:

لقد كانت مكة هي المكان الأول للصراع، وبالضبط لصراع كان طرفه الرئيس هو "الاسترقاق القبلي". وبمجرد أن أعلن الفتح، حتى أصبحت مكاناً لصراع طرفه

12-مصطفى السباعي، السيرة النبوية: دروس وعبر، دار الوراق / دار السلام، الطبعة الثامنة، 2008، من ص 67 إلى ص 90.

الرئيس هو "نظام وشريعة التوحيد". وبتغلب الفاتحين، تحقق النصر واقعا، فما كان هذا النصر في جوهره إلا استبدالا للطرف الرئيس بآخر ثانوي. فأصبح الرئيس ثانويا، وأصبح الثانوي رئيسا. وقد كان الفتحُ يومَ "مرحمة" بحق، إذ فيه: سقطت الوثنية من عرشها، وتوحدت القبائل تحت لواء التوحيد، وبدأ زمن جديد هو زمن الاستعداد للتوسع داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها، ودخل العرب في تغيير لم يقدره قدره منذ البداية... إلخ. لقد "أعزّ الله قريشا في هذا اليوم"، وتلك عبارة نبوية تكتنز كل هذه المعاني وما قد تفصح عنه العقول البشرية في المستقبل من تاريخها.

3-المستفاد من الهجرة النبوية في شرطنا التاريخي

إننا لا نستدعي السيرة النبوية اليوم عبثا، ولكننا نستدعيها لتوظيفها واستثمارها في إنتاج "خطاب إيديولوجي" يساهم بشكل أو بآخر في حل مشاكلنا العالقة. ونفس الأمر ينطبق على "الهجرة النبوية"، فهي جزء من كلّ. إننا في حاجة إلى "هجرة جديدة"، هجرة نلزم فيها إرادتنا باستحضار "قوانين" الواقع الموضوعي. إننا نطلب "الهجرة النبوية" ونستدعيها في زمن: انتشار الإرادية، تعدد الآلهة، تفكك الدول ذات السيادة، تراجع أدوار القدوات، الزهد في الزعامات الوطنية، العدمية الوطنية، الثبات في عالم متغير... إلخ. وإننا إذ نستدعي "الهجرة النبوية" لشرطنا، فإننا نرؤم من خلالها: البحث عن مخرج في شرطنا التاريخي.

لقد نزل القرآن في شرط تاريخي خاص، وتلقاه النبي (ص) وصحابته في نفس هذا الشرط. تلك هي أسباب النزول، وهذا هو الفعل النبوي الذي جاءت به

تلك الأسباب، كما أنتج بعضها صادرا عن قوتين: قوة الوحي، وقوة عبقرية النبي (ص). وإذا كانت استجابة القرآن في الشرط التاريخي العربي (الجاهلي) من قوة الوحي، فإن استجابة النبي في هذا الشرط هي من قوتي الوحي والعبقرية معا. وأهم ما في الأمر، أنّ الاستجابتين معا لم تتما إلا في شرطهما التاريخي. هذا هو أعمق درس في السيرة: وحي من السماء، وشرط في الأرض. لا يفهم الأول إلا بالثاني، ولم يكن النبي (ص) ومن معه ليفعلوا في الثاني إلا بالأول وما تعلّق به من عبقریات وظروف اجتماعية ونفسية مؤثرة.

واقْتداء بالرسول العظيم (ص)، كذلك يجب أن نكون، فنعود إلى القرآن لنستهدي به، على ضوء شرطنا التاريخي، لا على ضوء تخيلات وتأملات لا "مآلات لها في الأنفس والمجتمعات". فما كان التدبر إلا لغرضين: اطمئنان في النفس، وتفسير للمجتمع بهدف تغييره. وذلك هو قيد التدبر، بعد أن تحول بين أيدي بعضهم إلى خروج من "التاريخ" بلا رجعة. تقييد الإرادة بقواعد التاريخ، الارتقاء في التاريخ، الاهتمام بأدق التفاصيل الخاصة والعامة، التمييز (دون فصل) بين الغيب والشهادة دون إهمال أحدهما...؛ هذا هو أعمق ما في السيرة، وهو أكثر عناصرها إهمالا لدى المهتمين بها.

إن المسيطرين في الأرض دائما ما ينزعون إلى تزييف الوعي بالشرط التاريخي لكل مرحلة تاريخية، ولذلك تجدهم يتحسسون هذا الوعي ويبحثون عنه أينما وُجد، في الماضي والحاضر معا، مخافة أن يعي المسيطر عليهم المعركة كما يجب. وكما أن الشيطان يدخل الإنسان من التدين نفسه، فإن زيف المسيطرين يتسلل إلى عقول المسيطر عليهم تحت أقنعة من "الغيب والدين". وهكذا، نفقد الدين ووعينا التاريخي معنا، بعد أن نكون قد فقدنا النبوة والوعي بشرطها معا.

فلنلق، إذن، نظرة على شرط النبي (ص) وشرطنا معا. فلنلق عليهما نظرة
لعلنا نواجه السيطرة بالنبوة (الإيمان بالغيب) والتاريخ (الوعي بالوجود
الاجتماعي) معا:

- من شرط النبي: وثنية آلهة القبائل، ومن شرطنا: وثنية آلهة الرأسمالية
المتوحشة.

- من شرط النبي: الحاجة إلى دولة قومية عربية (عقيدتها الإسلام)، ومن
شرطنا: تهديد الدولة الوطنية بالتفكيك والتجزئة.

- من شرط النبي: حاجة القبائل العربية إلى زعيم يوحدنا ويبيّن دولتها
ويحميها من التهديد الخارجي، ومن شرطنا: حاجتنا إلى زعيم أو زعماء
وطنيين يدفعون عنا خطر العولمية والتفكيك وكل مخططات الاستعمار
الجديد.

- من شرطه: حاجة شبه الجزيرة العربية إلى الإخراج من واقع التمزق الداخلي
والحماية من التهديد الخارجي، ومن شرطها: حاجة الوطن إلى من يحميه من
التدخل الأجنبي، في القرار السياسي والاقتصاد الوطني والثقافة الوطنية...
إلخ.

- من تكتيكه: التدرج في توحيد القبائل وتأسيس الدولة وتوسيعها، ومن
تكتيكنا: التدرج في تحقيق الاستقلال الوطني.
... إلخ.

لقد كانت "الهجرة النبوية إلى المدينة" استجابة لكل الشروط أعلاه، وذلك لأنها
كانت:

- خروجاً من بلاد الوثنية إلى بلاد تأسيس التوحيد، حيث ستُعَلَن الحرب على
تلك البلاد الأولى.

- بحثاً عن إقليم وشعب وسلطة لتأسيس أول دولة عربية إسلامية في شبه الجزيرة العربية.
- بروزاً لزعيم عقدي وسياسي ينتقل من مرحلة الاستضعاف والانحسار إلى مرحلة الاستقواء (بالمكان والإنسان) والهجوم الفعلي الميداني.
- بداية لإطار جامع (=الدولة) من شأنه أن يوحد القبائل ويقوي نفوذها في منطقة شبه الجزيرة العربية وخارجها.
- تتويجاً لمسار من الدعوة العقدية المتدرجة، لمسار من الصبر على الألم والحصار والتعذيب والحزن، مما لا توفيه كتب السيرة حقه من الوصف، لأسباب أغلبها متعلق بما بلغنا من "شواهد" عن هذه المرحلة.
- فما أحوجنا، اليوم، إلى هجرة كهذه الهجرة في مقصدها: الارتقاء في التاريخ (=التقدمية). ولكن، ما أحوجنا إليها في شرط آخر يطلب:
- الهجرة من تعدد آلهة الرأسمالية إلى عقيدة التوحيد.
- الهجرة من العولمية إلى الوطنية.
- الهجرة من زمن الخونة والعملاء المأجورين إلى زمن الزعماء الوطنيين الواعين بقضايا الوطن.
- الهجرة من واقع تجزئة الدولة واستعمارها إلى واقع توحيدها واستقلالها.
- الهجرة من واقع التسرع والارتجال وحمل التاريخ على الأعمار إلى واقع التدرج والتخطيط الاستراتيجي واعتبار منطق التاريخ.

إحياء
للتنمية الأخلاقية



Ihyaee
Ethics Development



/IhyaeeForum